بالرحيل هو وأخوته، فيغادرها حزيناً كئيباً ويتوجه إلى (دمشق) ومنها إلى (القاهرة) ثم يعود إلى (دمشق) ويتصل بنور الدين محمود، الذي أكرم مثواه، وبعد إقامة عشر سنوات فيها، يشعر أنه يحتاج إلى أخذ قسط من الراحة بعد طول الشقاء، فينتقل إلى (حصن كيفا) في أقاصي الجزيرة، ويعكف هناك على البحث والدرس والتأليف.

ويعود إلى (دمشق) ثانية، بعد عودة البطل (صلاح الدين الأيوبي) إليها، فيستقبله (صلاح الدين) استقبالاً لائقاً، للصلات الوثيقة التي تربطهما، عندما كانا معاً في بلاط (نور الدين) ويستقر على مقربة من (صلاح الدين) إلا أن الشيخوخة تداهمه وتثقل عليه الحياة، فينتقل إلى رحمة الله في الثالث والعشرين من رمضان 584هـ بعد أن بلغ السادسة والتسعين من العمر، ودفن في سفح (قاسيون) بدمشق على جانب نهر يزيد الشمالي.

آثـــاره

بالرغم من حياة (أسامة) الصعبة والحافلة بالتنقل والترحال وتحمل المشاق والتصدي للنكبات والتعرض للدسائس والمؤامرات، إلا أنه خلف لنا تراثاً غنياً بالشعر والأدب والسيرة والتراجم، وترك لنا زادا شهياً حافلاً بصنوف الألوان، ومؤلفات تزيد على الستة عشر مؤلفاً بعضها مطبوع وبعضها الآخر ما زال مخطوطاً يقبع في زوايا المكتبات المعتمة.

وإذا كان مجالنا يضيق عن الكلام على كافة آثاره فسنجتزئ بالحديث عن أثرين فقط من أشهر آثاره كتابه (الاعتبار) وديوان شعره.

كتاب الاعتبار

يعد كتاب (الاعتبار) من أجمل ما وصلنا من آثار (أسامة) على الإطلاق. لأن الكتاب بحد ذاته وثيقة من وثائق الحروب الصليبية دونها شاهد عيان بكل صدق وأمانة وإخلاص. وهو عبارة عن مذكرات شخصية وذكريات كتبها صاحبها في أخريات أيامه. وقد بلغ من الكبر عتيا ونيف على التسعين، وسجل فيها مشاهداته وحياته الخاصة ومعاركه الحربية، والوقائع التي شارك فيها، كما استطاع أن يدخلنا معه إلى حصن (شيزر) المنيع، وجعلنا نشاهد بأم أعيينا حال أهله وطرق معيشتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ويصف لنا خوفهم وفزعهم ورعبهم